القيم الثقافية : عوائق للتنمية

قمت فى الفترة من أكتوبر ٨٦ وحتى أبريل ١٩٨٧ ببحث أنثروبولوجى فى جبل مرّة باقليم دارفور. وكان الهدف الوقوف على تأثير التغييرات الاقتصادية على حياة النساء هناك . منذ السبعينات بعد تحسين وتمديد الطرق فى منطقة جبل مرّة ،وبداية زراعة الموالح التى أصبحت تدرّ عائدا كبيرا، أصبح الرجال من الفور يستثمرون أرباحهم فى شراء اللّوارى وإنشاء المحلّات التجارية. ونتيجة لذلك انخرط الكثير من الرجال فى التجارة. ويعنى هذا أنّهم تركوا قراهم فى موسم انقطاع المطر لمزاولة العمل التجارى مع تجار المدن بالأراضى السهلية فى دارفور أو أبعد من ذلك . هذا التصرّف خلق وضعا غيّر مفهوم توزيع الأدوار فى العمل من حيث مسئولية كل جنس (نساء/رجال). وبناءا على ذلك فإنّ بحثى أولى اهتماما لمشكلات المرأة التى تنشأ من هذه التغيّرات وفرص تحسين ذلك الوضع لهؤلاء النساء.

من المشاكل التى تواجهها النساء،قلّة الماء المطلوب للرى كلّما حلّ موسم الجفاف . فالنساء فى جبل مرّة يزرعن أساسا البصل والثوم فى مزارع مروية ،أمّا الرجال فإنّهم أكثر ما يزرعون الموالح فى الجنائن. ونسبة لأسباب متعدّدة فى أوائل الثمانينات قلّت كمية مياه الرى. خلقت فترة الجفاف هذه زيادة الحاجة للأراضى المروية بسبب ارتفاع أسعار المنتجات المروية نوعا من التسابق نحو الأراضى القيمة على طول قنوات الرى. هذا بالاضافة الى بعض الهزّات الأرضية الخفيفة التى قلّلت كمية الماء فى بعض أجزاء المنطقة. وكنتيجة لذلك هجر سكان القرى جنائنهم فى الأراضى السهلية فى سفح جبل مرّة وحاولوا الاستيلاء على مواقع مروية فى الجبل.

كل هذه العوامل أدّت الى نقص كمية الماء خلال شهور ديسمبر/ فبراير وهى الفترة التى يتم فيها رى الجنائن ومزارع البصل والثوم. تقع الجنائن التى يملكها الرجال فى منحدر الوديان بالقرب من القنوات الرئيسية التى تنقل الماء من النهر الى المزارع.وتملك النساء مزارع صغيرة فى عمق الوادى،وهكذا بسبب الموقع من مصدر الماء فإنّ الرجال يتمتعون بوضع أفضل فى مسألة الرى. ولأنّ الجنائن

قليلة رغم اتساع رقعتها،ولا تحتاج للماء إلا مرّة كل شهر أو ٤٠ يوما،فإنّ بمقدور الرجال حجز فرصهم للرى مع المسئول عن قنوات الرى (ريس الطرق). أمّا مزارع البصل والثوم،وهى مزارع صغيرة لكنّها كثيرة تحتاج للرى مرّة كل عشرة أو أربعة عشر يوما. وعليه فإنّ الريس يرى أنّه من المستحيل توفير الماء لمزارع النساء.

هذه الندرة فى الماء تخلق مشاكل للنساء لأنّهنّ يحتجن لعائد المحاصيل النقدية بصورة ماسة. ورغم أنّ الرجال بيدهم أموال كثيرة من تسويق انتاجهم من الموالح،فإنّ النساء يحتجن لنقود خاصة بهنّ. وهذا الوضع ناشئ عن توزيع المسئوليات بين الرجال والنساء من الفور فيما يخص عوائلهم. فالنساء عليهنّ اطعام أطفالهنّ ورعاية كبار السن والمعوقين فى الاسرة،كما عليهنّ تصريف مسئوليات الأسرة نحو أزواجهنّ والضيوف. أمّا الرجال فيحتاجون فقط لتأمين مؤنة الاستهلاك من الغذاء لأنفسهم وضيوفهم،كما عليهم الالتزام بدفع الضرائب عن أسرهم ومصاريف الدراسة والكساء وكل ما يشترى من السوق كالزيت والصابون واللحم الخ.

بيد أنّه فى فترة انقطاع الماء يكون الرجال بعيدين عن القرى،وهذا يعنى أنّ النساء هنّ اللائى يقمن بشراء المستلزمات الاستهلاكية للأسرة. وفى بعض الأحيان،حتى فى حالة وجود الرجل بين أفراد أسرته،فهو غالبا ما يعتذر عن شراء تلك المستلزمات إمّا لأنّه صرف ما معه فى صيانة عربته أو شراء بضائع بكميات كبيرة للتجارة،أو فى الايفاء بالتزاماته لزوجته الأخرى (أو زوجاته) وعليه فإنّ المرأة لكى تحافظ على أداء الأسرة يصبح عليها أن تتولّى التزامات هى من شأن زوجها. وبالتالى فإنّ انتاجها لمحصولات مروية ضرورة تفرضها المحافظة على قوام أسرتها.

تنتظر النساء وصول الماء لمزارعهنّ فى الفترة بين ديسمبر وفبراير انتظارا غير مجد،وقد يتشاجرن مع الرجال الذين يملكون جنائن فى المناطق العلوية للنهر لأنّهم أحيانا يأخذون الماء للرى فى غير مواعيد دورتهم. وقد ترفع النساء الشكاوى للريس الذى قد لا يحل الاشكال بصورة جذرية. فى حالة من هذه الحالات شهدت بعض النساء يشكون وهنّ منتظرات دورهنّ للرى،فسألتهنّ لماذا لا ينظمن

أنفسهنّ فى تنظيم يضمن لهنّ دورهنّ فى الرى طالما كانت هناك لجنة تتكوّن من روّساء القنوات من كل الوديان فى بداية موسم الرى ، مهمتها تنظيم الدورات للمزارعين ؟ وكان اقتراحى لهنّ هو إذا ما تجمّعن فى تنظيم حسب منطقة مزارعهنّ يصبح لهذا قدرا من الضغط على اللّجنة لتوفر لهنّ قدرا أحسن من الرى،بالاضافة الى أنّهنّ يستطعن رى كل المزارع فى وقت واحد،كما أنّ الريس فى "الطرق" لا يمكن أن يرفض تحديد دورة لهنّ. وفى النهاية فإنّ تعاونهنّ قد يكسبهنّ قدرا من الثقة إذا استطعن الوقوف بحزم من أجل مطالبهنّ،وهذا يكفل لهنّ تأمين احتياجهنّ فى حالة رفض الرجال للايفاء بالتزاماتهم. لكن فى كل الحالات التى أشرت فيها بتلك الآراء،يجىء إجابة النساء متشابهة رغم تنوّع الأسلوب ،فالاجابة أبدا أنّهنّ لا يرين حلاّ فى التجمّع كتنظيم ذلك لأنّ المناقشات والتنظيمات العامّة هى من شأن الرجال،وأنّهنّ يشعرن بأن ليس لهنّ علاقة بالمجتمع العام،ولذا فلا قدرة لهنّ على التأثير على قرارات يتخذها الرجال،وهنّ لا يتوقعن أن يكون صوتهنّ مسموعا فى مثل هذا الشأن.

هذه الاجابة أدهشتنى لأنّ النساء بالمنطقة أبدا ينظمن أنفسهنّ فيما يعرف بـ (توازى) أى (النفير) من أجل العمل أو طقوس العادات كالزواج والجنائز،كما أنّ النساء لا يظهرن خجلا أو نقصا نفسيا تجاه الرجال،بل بالعكس فى حالة المشاجرة يقفن موقفا قويا ،وقد يسخرن من الرجال إذا تصرّفوا تصرّفا مشينا. وفى مناسبات الزواج توّلف النساء أغانى تعبّر عن ضعف تصرّف الرجال بصورة تحط من مكانتهم الاجتماعية. وهناك بعض النساء يقاضين أزواجهنّ فى المحاكم بسبب تجاهلهم لالتزامات أسرهم،بل إنّ بعضهنّ يطالبن بالطلاق. ومن جانب آخر فالنساء يظهرن بأنّهنّ على قدر كبير من الفهم فى حضرة أزواجهنّ فإنّهنّ يخدمنهم بطاعة ويولينهم كل الرعاية رغم أنّهنّ قد يكنّ سخرن منهم فى اليوم السابق فى المزارع. وبعض النساء يبدين رغبتهنّ فى الانفصال عن أزواجهنّ لكنّهنّ يتصرّفن معهم باحترام حينما يعودون من أعمالهم. إنّنى لا أستطيع أن أفهم هذا التناقض فى التصرّف ،فمن جانب تبدو النساء حريصات على استقلالهنّ الاقتصادى،ويظهرن فخرهنّ بأنّهنّ منتجات . وقد لاحظت خلال عملى الميدانى أنّ النساء يظهرن قوّة

وقدرة ،فهنّ يبدين شعورا ايجابيا بذواتهنّ. وفى جانب آخر فهنّ يتصرّفن كربات أسر مطيعات فى حضرة أزواجهنّ،وهنّ يعتبرن أنفسهنّ غير قادرات على تنظيم أنفسهنّ فى تنظيم رسمى،فى حين أنّهنّ قادرات على التنظيم من أجل النشاط الاقتصادى أو الطقسى. لم أستطع فهم ذلك الى أن دخلت فى تجربة شخصية أعطتنى موقفا أفضل لفهم الموقف الذى تعانى منه هؤلاء النساء.

فى صباح يوم حينما كنت أتهيأ للخروج الى موعد لى مع أحد النساء ،قابلت جارى الذى اسمه حسن وهو جالس مع بعض ضيوفه خارج منزله. وكانت زوجته غائبة لبعض الوقت فى قرية أخرى. فحينما رآنى طلب الىّ عمل شاى،ليس تفضلا،كلا وإنّما أمر،كأنّما أنا واحدة من نساء منزله. حاولت أن أجيبه بأنّنى لا أستطيع عمل الشاى نسبة لمواعيدى التى خرجت من أجلها، لكن شعرت بأنّنى مدينة له بالكثير، فهو الذى قدّمنى لأهل القرية ،وسمح لى بالسكن فى مجموعته ،ومدّنى بالفحم والسكر من مركز التوزيع ،وهو دائما يحجز لى مقعدا فى اللورى حينما أرغب فى الذهاب الى المدن التى بالأراضى السهلية. لقد فعل الكثير من أجلى،وبكل أمانة فهو لايزال يستطيع تقديم الكثير لى، فالمحيط خارج القرية لم يزل مجهولا وغير واضح بالنسبة لى. فأنا لا أزال أحتاج لمساعدته من وقت لآخر،لذا يجب ألا أختلف معه. وعليه عدت لمنزلى درن تعليق وأعددت الشاى له ولضيوفه ،وبعد ذلك ذهبت لمهمتى الأساسية.

هذا الحادث جعلنى ألاحظ الآتى:- رغم أنّنى قادرة على الذهاب لمواعيدى والقيام بعملى،لكنّنى أحتاج لمساعدة الرجال للتفاعل مع المجتمع الخارجى. وأعتقد أنّ ذلك بعينه هو الحاصل على النساء بالقرية ،فرغم أنّهنّ مستقلات اقتصاديا إلا أنّهنّ محتاجات لمساعدة الرجال كى يكنّ قادرات على كسب المال. فالكثيرات من النساء لا يستطعن الحديث بالعربية السودانية ،وعليه فهنّ لا يستطعن التفاهم مع التجار فى المدينة ،بالاضافة الى أنّهنّ لا يعتبرن ذوات تجارة فعلية. وبناء على ذلك فهنّ يعتمدن على أزواجهنّ أو أقاربهنّ من الرجال ليقوموا بالتفاهم نيابة عنهنّ.فرجال الفور يقرأون القرآن فى الخلاوى ممّا يعينهم على فهم اللغة العربية ،وليس ذلك فحسب بل

أنّهم لصيقون بأساسيات الثقافة التجارية.

هكذا لاحظت أنّ فى ثقافة الفور،رغم أنّ النساء مستقلّات تماما فيما يخص النشاط الاقتصادى واتخاذ القرار فيه ،فإنّ العالم الخارجى هو من شأن الرجال. فهم الذين يقيمون العلاقة أو الصلة بين حياة القرية والمدن،وبهذا فهم مهمون بالنسبة للمرأة ،فبمساعدتهم تستطيع النساء كسب المال لمعيشة أسرهنّ وليستقللن عن نفس الرجال. ففى فكرتهنّ أنّ التنظيمات الرسمية هى جزء من ميدان التنافس السياسى العام،وهو مجال للرجال. فرغم أنّهنّ يقمن بتنظيم (النفير) إلاّ أنّهنّ ينظرون للتنظيمات الرسمية على أنّها تتعلّق بالعالم الخارجى،وهو عالم غريب وغير مفهوم للنساء،ولا قدرة لهنّ عليه. وبالتالى فإنّ فكرة العمل فى محيط ذلك العالم تجعلهنّ يشعرن بالمرض والانتباه النفسى. لهذا فهنّ لا يتجمّعن فى تنظيم رسمى من أجل الحصول على دورات رى أفضل،وذلك بسبب القيم الثقافية التى نشأن فى ظلّها ،وهذه القيم هى التى شكلت العوائق أمام التنمية بالنسبة للنشاط النسوى الاقتصادى.

كارن ويلمز